النشاط الثقافي في العالم

فرنسا

رسالة من بدر الدين عرودكي

باريس الرعب والسحر ...

ـ ولكن ما الذي جئت تفعله في هذه المدينة المرعبة ؟

المدينة المرعبة هي باريس بالطبع . والسؤال يطرحه عليك معظم الباريسيين الذين تجاوزوا الاربعين من عمرهم . وسرعان ما يكتشف هذا الغريب القادم من بعيد حلمه. هل هو حلمه حقا ؟ أبدا . ولتجلس قليلا مع هذا الذي يطرح عليك السؤال ، لتجد أن له حلمه هو الآخر. انه يحلم بالجبال التي تغسل اقدامها في البحر وترصع هاماتها بالثلج في كولومبو . يحلم بتلك الحياة الرخية السادرة في بغداد ، حيث لا تستيقظ في الساعة السادسة صباحا ، والظلمة ما تزال تلف أجواء باريس ، لكي يتناول على عجل فنجانا من الحليب وكسرة من الخبز ، ثم ليحشر نفسه بين المئات بل الالوف في المترو . امامه ساعة ، وأحيانا اكثر من ساعة ، لكي يصل الى مكان عمله . ثم لكي ينخرط في هذه الآلة الكبيرة التي لا تكف عن الحركة من التاسعة صباحا حتى السادسة مساء ، ليجد نفسه مرة اخرى في علبة سردين مضاءة ، تتحرك كالافعى في سراديب المدينة الكبيرة . ساعة اخرى ليصل الى البيت ، منهكا ، مستنفدا : يتناول عشاءه ، ثم يغط في نوم حافل بكوابيس الاجازة القادمة : اين سيقضي عطلة عيد الفصح ؟ اين سيقضي اجازة الصيف ؟ سؤال تحتاج الاجابة عنه شهورا . ثم تعود الحياة من جديد سيرتها العصرية !..

يضحك ملء فمه ، وينضح وجهه بالسخرية . يقول لي : انهم يطلقون على بلادكم اسم البلدان المتخلفة .. ولم أفهم بعد تقدمهم لكي أفهم تخلفكم . لكني أفهم انكم أفضل منا . انكم على الاقل تعرفون كيف تستفيدون من وقتكم . تعملون . ولكنكم تملكون اوقات فراغ جميلة.. انكم لستم متخلفين هنا ، وانما نحن المتخلفون .. اننا نركض كل يوم بدون اية غاية ، أما انتم فما زلتم تملكون الامل على الاقل . قد تكونون غير مجهزين بما فيه الكفاية . ولذلك لست افضل هذه التسمية التي يطلقونها على بلادكم ، بلادكم انتم بشكل خاص ، وانما أفضل اسما آخر هو « Les pays sous equipes »

أنتم منبع ثروتنا نحن الذين نسيء التصرف بها ومع ذلك نطلق عليكم لقب المتخلفين .. ويقولون انه عصر العقل الالكتروني !!..

المتحدث هنا صحفي فرنسي تجاوز الستين من عمره ، قضى ثلثي عمره في التنقل بين أرجاء العالم ، وربما قضى ثلث هذا العمر في الوطن العربي . انه يعرف الجميع : ملوكا ورؤساء وزعماء ، ويتحدث عن عبد الناصر حديثه عن صديق التقاه قبل قليل وتناول معه فنجانا من القهوة وتبادلا خلال ذلك ذكريات المدرسة .. ويذكر من دمشق غوطتها ، ويتأسف : دمشق كباريس ، تنمو على حساب الخضرة النادرة في عصر المدن الكبرى هذا !..

ليس هو الوحيد في ذلك ، وانما كثيرون غيره يرددون نفس الـ (أوف) . فيما يشبه السيرة الذاتية ، او ان شئتم مدخلا الى سيرة ذاتية ، الذي صدر قبل أيام تحت عنوان « MA Moitié d'orange » ، يكتب جان لوي بوري : « أحب الحياة في المدن ، فيما عدا باريس » . ويجلس ، لكي ينظر الى صديقه كلود ميشيل كلوني ـ وهو ناقد سينمائي ـ بحسد : « سيذهب الى القاهرة خلال ايام .. آه ، وسيضيع في أحيائها القديمة كطفل صغير .. أكان عدلا الا أستطيع الذهاب معك ؟! » .

ولا يصدقون انني كنت احلم بهذه المدينة ، وانني الآن ألقي في شوارعها بنفسي مستسلما لكل شيء فيها : لحشود الناس في شوارعها، لمخازنها الضخمة ، لمكتباتها ، لمعارضها .. مستسلما ، لانني لا استطيع ان اتخذ قرارا . وأي قرار يمكن ان تتخذه في اختيار واحد من ألف ؟ ثم كيف يتاح لك ان تتخذ هذا القرار يوميا ؟ أليس الاستسلام هو الاستجابة الوحيدة لمثل هذه المثيرات ؟

حسنا . ههنا أذن يكمن رعب المدينة وسحرها . انها ملتقى ومنطلق الرياح الاربع . ولا بد لك من ان تكون قويا بما فيه الكفاية ، ومتفرغا تماما ، لكي تضع رأسك وسط هذه الدوامة دون ان تشعر بالدوار .

باريس الرعب والسحر ؟.. نعم . ويكفي ان نستمع الى نشرة اخبار المساء في التلفزيون لكي تشعر بالدوار . ينقلك مذيعوها ، عبر شوارعها العديدة فقط ، الى انحاء العالم المختلفة : في كليبر يتقرر مصير السلام في فييتنام . في الباليه رويال موقف الفرنك من الدولار . في الكيه دورسيه تلقى زيارة وزير الخارجية الصهيوني .. ثم .. ثم .. وراء ذلك او تحت ذلك ، تجتمع العصور المختلفة في لحظة واحدة ، وتستعاد لحظات من التاريخ لها مذاق البهار ، لحظات من التاريخ الادبي على وجه الخصوص ، وتنقل فورا الى لحظات أخرى مجهولة ما تزال في سديم المستقبل بخارا لا لون له ولا شكل : انها المفاجأة ، بل هي الصرعة التي غدت نمطا ، فيما يبدو ، من انماط عصرنا .

أقول صرعة ، ولن أشطب هذه الكلمة لكي أستبدلها باخرى . قبل أسابيع حمل أحد الفنانين العرب ، بناء على نصيحة استاذه في أكاديمية الفنون الجميلة في باريس ومساعدته ، حمل لوحاته الاخيرة الى احدى صالات العرض . هناك فحصوا هذه اللوحات ، وأبدوا في النهاية اعجابهم بها . ولكنهم تأسفوا : فنوعية اللوحات لا تقدم مفاجأة الى قطيع المعارض الفنية الباريسي هذا الموسم . لو انه قدمها في الموسم الماضي لكانت مفاجأة مثيرة ، لكانت أعجوبة الموسم ... أما الآن فلا .. بكل أسف .. لا ! كان بوسع صديقنا الفنان ألا يذهب بنفسه وان يلعب لعبة غيره ، لكي تتصدر صوره أغلفة المجلات ، ولكي تزدحم شقته بالمصورين وطالبي الاحاديث الصحفية ، وان يبدأ باعطاء المواعيد بعد شهر ونصف .. و .. و .. وأن يغدو مسمارا من مسامير هذه الآلة العجيبة ، ولكن اعماله الفنية ستتحول بذلك الى بنطال يستبدل بغيره ما ان يهترىء ، وستكف في النهاية عن ان توجد .

ذلك ان الثقافة القائمة على الاستهلاك ، لا تفرق ، كما أشرت في رسالتي السابقة ، بين كتاب وعلبة جبن ، او بين اثر فني وعلبة كلينكس . صحيح انه وسط ذلك كله تستطيع ان تتلمس الاصالة هنا او هناك : في رواية او بحث او لوحة .. ولكن أنى لك ان تفعل ذلك دوما (او بالاحرى كيف ؟) وأنت محاصر كل يوم بالصحافة والاذاعة والتلفزيون ، بالنشرات والاعلانات والدعايات في الشوارع وعلى أرصفة المترو ، بل وفي علب المترو ؟ هل يمكن ان تتنفس بحرية ضمن جو الحصار الخانق هذا ؟ وكيف ستحاول ان تتمرد ، لكي تتخلص من محاولة حشرك بالقوة ضمن الكتلة المتجانسة التي يصنعها سادة مجتمع الاستهلاك ببراعة مذهلة ؟

انهم قد وصلوا اليك اخيرا . فبعد ان سادت النمطية كل الاشياء ، لا بد من ان يحول الناس ايضا الى انماط او بالاحرى الى كتل متجانسة . لن تكون هناك فروق فردية .. بل فروق بين الكتل . سوف يفصل الانسان ويشذب ويصنع على نمط واحد هو نمط الكتلة.

وبعد ذلك ، يستطيع هذا المغامر بأموال غيره ان يصنع من انسان عادي فنانا شهيرا يتنقل بين نيويورك وطوكيو ، جامعا هنا وهناك الثروة واصداء الاعجاب .. ويستطيع آخر ان يفبرك كاتبا يبيع الكتاب الاول له عشرات الالوف من النسخ خلال الاسبوع الاول من نشره .. وآخرون ... اما انت فلست الا واحدا ، رقما مسجلا على عدة بطاقات تحملها معك دوما : يعرفونك من خلالها ، ولا يتذكرونك الا في لحظة الموت !

أوليس ثمة مهرب من هذه الدوامة ؟ بلى !.. انها لحظات الماضي المجنون ، وخصوصا عشرينات هذا القرن : سنواته المجنونة . وباريس لها ذكرياتها التي لا تنضب عن تلك السنوات الحارة . فقد احتضنت خلالها عشرات العبقريات العالمية في كل ميادين الفنون ، وصدرتهم للعالم حاملين عطرها .

« امنحني هذا الفالس » ...

وخلال الاشهر الماضية كانت باريس على موعد مع واحدة من هذه الذكريات . مع واحد ينتمي الى جيل لم يكتشفها فحسب وانما اكتشف كل الاماكن الشهيرة في فرنسا اليوم ، وأعني به الروائي الاميركي « سكوت فيتزجيرالد » ، الذي لم يعرفه القارىء العربي للاسف الا منذ سنتين فقط عندما ترجمت له (روايات الهلال) في القاهرة روايته الشهيرة « غاتسبي العظيم » .

هل هو سكوت فيتزجيرالد حقا ام ملهمته وزوجته زيلدا « العظيمة » ؟

خلال السنوات الماضية ، كان كل ما يكتب عن فيتزجيرالد مرصودا له ، لسيرته بوصفه الناطق الرسمي باسم عصر الجاز ونموذجه الكامل . ولا تلعب زوجته « زيلدا » الى جانبه الا دورا ثانويا ، وفي كثير من الاحيان دور العقبة التي أدت في النهاية الى نهايتهما الفاجعة معا .

من هنا أهمية هذه المحاولة التي قامت بها فتاة اميركية في الخامسة والعشرين من عمرها « نانسي ميلفورد » لانصاف «زيلدا» .. للبحث فيما وراء الاحكام النهائية الصادرة عليها من كبار معاصريها (جون دوس باسوس وارنست همنغواي) ، وعبر استقراء مئات الوثائق والصور والشهادات الحية لعشرات الاشخاص في اوروبا واميركا من الذين كانت لهم في عشرينات هذا القرن علاقات مع هذين الطفلين المرعبين اللذين ولدا مع القرن العشرين وقتلا به .

نانسي ميلفورد وكتابها « زيلد » مترجما الى الفرنسية اخيرا مع رواية زيلدا في كتاب آخر للمرة الاولى باللغة الفرنسية « امنحني هذا الفالس Accordez moi cette valse » كانا حديث الاوساط الثقافية خلال الشهر الماضي في باريس . وكان باريس تحاول أن تستعيد ذكراهما معا بعد ان كانت تذكر واحدا منهما هو سكوت فيتزجيرالد ، ناسية زيلدا التي كانت في الاساس من وجوده الادبي .

يكتب معاصروهما عنهما :

« ١٩٢٠ : كانت لهما ملامح ابناء الشمس . كان شبابهما صاعقا، وكان العالم كله يريد التعرف اليهما . كانا الاكثر جمالا ، والاكثر شبابا ، والاكثر جنونا » .

« ١٩٢٠ – ١٩٣٠ : كانا يبنيان تعاستهما وروائع ادبية تؤلف قصة تحكي حطام حياتهما وحبهما » .

« ١٩٣٠ : نهاية السنوات المجنونة ، واليقظة الباردة لصباح اليوم التالي للعيد . لقد اصبح اطفال الجاز زوجين مرعبين ، غارقين، هو في الكحول ، وهي في الجنون » .

ويكتب هو : « أريد ان اكون ، من جديد ، محط اعجاب الجميع ! » .

وتكتب هي : « بعد مائة عام أحب ان يبحث الناس عن معرفة ما اذا كانت عيناي زرقاوين او بنيتين ! » .

ولم يكن هو بحاجة الى شيء آخر غير حياته ورواياته ، لكي يكون محط اعجاب الجميع . وما تزال أصداؤه أصداء جنونه تلون أجواء باريس ، بل نيويورك .

أما هي ، فلم تكن بحاجة الى مائة عام . خمسون عاما على تاريخ هذه الكلمة ، وتأتي فتاة اميركية مسحورة بهذين الطفلين ، لكي تطرح السؤال الذي يمكن ان تطرحه كل امرأة بعد ان تستمع الى نهايتهما الفاجعة : من المسؤول ؟

كان لا بد لها حقا من ان تكون مسحورة بزيلدا ، لكي تدخل عالمها من كل ابوابه لكي تكتشف مناحيه الغامضة . تجيب نانسي ميلفورد : « كانت زيلدا تكره روايات فيتزجيرالد .. وأردت أن اكتشف السبب. ان كتابي دراسة عن الجنون والوحدة . في البداية ، لم اكن اعرف حقا اذا كنت أحببت زيلدا . اما الآن فاني اعرف ذلك بالتأكيد . على اني لم أجعل منها لا أما طيبة ولا زوجة مخلصة . ان زيلدا لم تحطم « سكوت فيتزجيرالد » – كما هو شائع – ، ولا يمكن اجبار احد من الناس على أن يصبح كحوليا – في برينستون كان يشرب ايضا – ، ولا على ان يغدو مجنونا . كل انسان مسؤول عن مصيره »

وتتابع : « لقد استقبل كتابي بشكل جيد من قبل جمهور نسائي : فتيات في العشرين وجدن في زيلدا أختا ، فاتخذن منها نموذج المرأة المضطهدة ! » . وتبتسم : « فالزواج دوما معركة حافلة بالمنافسة والمزاحمة ! » .

وانما زواجهما هو بداية هذه القصة الفاجعة التي يمكن ان تضاف حقا ، كأثر أدبي ، الى آثارهما الادبية معا : «حنان هو الليل» ، « ذلك الجانب من الفردوس » ، « السعداء والمعذبون » ، « غاتسبي العظيم » وأخيرا « امنحني هذا الفالس » .

في البداية ، كانت الآلهة ترعاهما على حد قول نانسي ميلفورد . عندما كانا يقضيان اليوم الاول من زواجهما ، في الشقة (٢١٠٩) في فندق « بلتيمور »ويرتبان اولى هدايا زواجهما ، كان « سكوت » يفكر : « بالكاد يتمكن المرء من ان يتزوج المثل الاعلى لاحلامه ! » . اما هي فقد كانت تحيا لحظات مفعمة بجنون المتعة « كانت تشعر بالجوع في منتصف الليل ، فتأمر خدم فندق بالتيمور باحضار السبانخ الطازجة والشمبانيا ! » .. وتكتب ، بعد ايام ، رسالة ، سوف يستخدم سكوت مقاطع منها في روايته « السعداء والمعذبون » :

« ... انني اتطلع الى الطرقات وأراك تأتي . ومن كل سدفة ، من كل غيمة ، تسرع سراويلك المدعوكة العزيزة نحوي . بدونك يا غالي، يا حبي ، لن استطيع الرؤية او السمع او الاحساس او التفكير ، ولا حتى الحياة . أحبك ، ولن اسمح – فيما بقي لنا من ايام نحياها – ان ينفصل احدنا عن الآخر ليلة اخرى . بدونك ، تبدو الحياة كما لو كنت تتوسل الرحمة من العاصفة ، او كما لو كنت تشوه الجمال ، او كما لو كنت تشيخ . أود أن أقبلك ، هنا على عنقك ، عند منبت تلك الشعيرات .. وهناك ، حيث يبدأ صدرك . أحبك – وليس بوسعي ان اقول لك الى اية درجة – وأفكر : أستطيع الموت دون ان تعرف ذلك.. آه يا أبلهي .. لا بد لك ان تحاول الاحساس كم أحبك ! – وانا ، بمجرد ان تغادر البيت بلا حياة ، وليس بوسعي حتى ان اكره هؤلاء الناس الناكرين للجميل . لا اريد ان اكره اي شخص ليس له الحق في ان يعيش لانه يوسخ عالمنا .. لانني احبك . تعال بسرعة . تعال اليّ . لا استطيع الحياة بدونك . حتى لو كرهتني ، حتى لو كنت مغطى بالجروح كأجذم .. حتى لو ذهبت مع امرأة اخرى .. حتى لو جعلتني اموت من الجوع .. حتى لو كنت تجلدني .. اعرف ذلك . أريد ايضا ان اكون معك يا حبي .. يا حبي .. يا عزيزي ! »

« زوجتك »

كانت تحبه ، وربما كانت ضعيفة تحت وطأة عاطفتها القوية نحوه . وما لم يره اصدقاء سكوت في ذلك الحين ، كان هذا الجانب بالذات ، الذي لم تكن فيه أقوى منه !

وفي ذلك الوقت ، كان سكوت فيتزجيرالد يسكر على قمة نجاحه الذي حققه كتابه « ذلك الجانب من الفردوس » الذي قد يعتبر اليوم – كما تنقل نانسي ميلفورد عن واحدة من صديقاته – كتابا بلا

أهميـة ، ولكنه في عام ١٩٢٠ كان عملا تجريبيا يؤسس نوعا جديـدا من الادب .

ولكي تكيف نفسها مع حياة مفعمة ومتفجرة ، أعني حياة زوجها، بدأت تلعب ادوارا متناقضة . كانت تبذل جهودا كبيرة : لتكون عاشقة حقيقية ، وزوجة ، وامرأة مستقلة في الوقت نفسه .. لكي تسخر من الجميع وتظل مع ذلك لطيفة ومجاملة .. لكي تكون فخورة وتبقى ايضا ملهمة زوجها وبطلة رواياته . وفي محاولاتها المضنية هذه ، كان يراودها الاحساس بأن زواجهما ينزلق شيئا فشيئا ، خفية ، نحـو مناطق مجهولة ، حيث تفاقم بأن تضيـع . وتعكس عيناها ، بسبب ذلك ، وميضا غريبا ، سرعان ما يلاحظه جون دوس باسوس الـذي التقاهما في عام ١٩٢١ للمرة الاولى ـ وكان على وشك اصدار روايته « ثلاثة جنود » التي حققت له مكانة مرمـوقة في ميدان الادب ـ : « التقيت زيلدا للمرة الاولى . كانت جميـلة ولطيفة . كانت امرأة رائعة .. كل شيء فيها كان أصيلا ومسليا . غير انه كان لها ايضا هذا الوميض الغريب في نظرتها ! » .

وفي سبيل ان يغيرا حياتهما ، وان يقتصدا قليلا ، يبحر سكوت وزيلدا في ربيع عام ١٩٢٤ الى فرنسا التي كانت محط معظم كتـاب الجيل الذهبي الاميركي في أوائل هذا القرن . ويستأجر ، لكي يعكف على الكتابة ، دارة تشرف علـى الشاطىء اللازوردي . وهناك يلتقيـان بمجموعة من الطيارين الفرنسيين كانت تعسكر بالقرب من دارتهما ، حيث كانا يقضيان الامسيات معهم يمرحون ويشربون . كان سكـوت ينصرف الى الكتابة طيلة النهار . اما زيلدا فقد حاولت ان تبذل جهدها لكي تترك زوجها ينصرف الى كتابته ، فكانت تقرأ ، غير ان عينيهـا كانتا تؤلمانها ، ثم انها كانت تفضل ان تتحرك على ان تظل ساكنـة بسبب القراءة ، ولذلك وجدت نفسها بعد حين ، وحيـدة ليس لديها ما تفعله !

وبدون ان تنتبه الى ذلك ، بدأت تلتقي يوميا مع احـد هؤلاء الطيارين (ادوار جوزان) . وكان بوسع كل امرىء ان يلقاهما تحت الشمس على الشاطىء ، يتبادلان الانخاب : كانا جذلين من قدرتهما على الابتعاد عن رواد الشاطىء الآخرين . وكان سكوت سعيدا برؤية زيلدا برفقة انسان ليساعدها على تزجية وقتها وتغيير مزاجها ! كان «جوزان» وسيما ، وكان قد بدأ يحب زيلدا . ولكي يعبر لها عن حبه ، فقد كان يقوم ببعض الحركات البهلوانية بطائرته فوق دارتها ، بل كان يغامر في الاقتراب من السطح القرميدي مسافة اصبعين ! كان يرى فيهـا مخلوقة مفعمة بالحيوية ، بالرغبة العارمة في حياة حظها منها سحرها وشبابها وذكاؤها . لم تبد له امرأة معقدة ، وانمـا امرأة ذات رغبات بسيطة : أن تمتد الحياة على شواطىء مذهبة بالشمس ، وان تتنـزه بالسيارة ، وان تقيم عشاءات لا تتخللها التقاليد والرسميات .

حدث ذلك في عام ١٩٢٤ عندما كانت زيلدا في الرابعة والعشرين من عمرها .

غير ان ذلك لم يستمر . فجأة ، لم يعد احد يرى زيلدا مـع جوزان . ولم يعرف احد ما الذي جرى ، غير ان سكوت يكتب فـي مذكراته بتاريخ ١٣ تموز من ذلك العام : « الازمة الكبرى .. زيـلدا تسبح كل يوم » !.. لم يكن آنذاك قد مضى أكثر من ستة اسابيـع على تعارف زيلدا وجوزان . ولم يبد على سكوت انه فهم الاسباب التي دفعت بزوجته للتعلق بجوزان ، فهو يكتب في مـذكراته : « عرفت ان ثمة شيئا قد تهدم ولن يكون بالوسع ترميمه » . وكـان يرفض الاعتراف ـ لنفسه على الاقل ـ من ان زيلدا كانت يائسة وتعيسـة من رؤيـة نفسها على هامش عالمه بينما يستمر هو في الكتابة ، ذلك انه سرعان ما يتفاءل ويكتب : « ها هي المشاكل تتبدد .. لم يعد لجوزان وجود » في حين كانت زيلدا تفكر ، ثم تقدم على محاولة انتحار كانت بدايـة انهيارها النفسي والعصبي . اذ ما تلبث في عام ١٩٣٠ أن تدخـل المصح ، في حين يغرق سكوت في الجن .

وفي عام ١٩٣٢ تبدأ زيلدا كتابة روايتها « امنحني هذا الفالس » وبكل براءة ، تستعير اسم بطل رواية زوجها آموري بلاين « ذلك الجانب من الفردوس » . وما ان تنهيها حتى تدفع بها الى الناشر . غيـر ان سكوت يعلم بذلك فيبرق الى الناشر طالبا ايقـاف طبع الرواية ، ويستعيد المخطوطة ليجري عليها بقلمه كثيرا من التعديلات .. ذلك انه لم يكن ليقبل ان تسفح زوجته على الورق حياتهما الخاصة . لقـد كان هو كاتبا محترفا .. اما هي ؟ وهكذا ضاع المقطع الاول مـن الروايـة .

في عام ١٩٤٠ يموت سكوت فيتزجيرالد بأزمة قلبية ، وفي عام ١٩٤٨ تموت زيلدا في حريق المأوى الصحي الذي كانت تنزل فيه .

من حطم الآخر ؟ كان سكوت فيتزجيرالد ـ قبل نانسي ميلفورد ـ قد طرحه على نفسه وكتب : « كان الاصدقاء يقولون : ان كلا منا ، انا وزيلدا ، سيكون في افضل حال بعيدا عن الآخر . ولكنا كنا نحب بعضنا بعضا . كانت تحب طعم الكحـول على شفتي ، وكنت أعبـد هلوساتها الاكثر جنونا . اعرف اني لم افكر في يوم من الايام ان احدنا قد حطم الآخر » . وذلك ما توافق عليه نانسي ميلفورد : « كل مسؤول عن مصيره » . ولكنها تريد رد الاعتبار لامرأة احست نفسها دوما على هامش العالم رغم انها كانت تملك كل الامكانيات لكي تكون في مركزه . فبالنسبة لهمنغواي ودوس باسوس كانت زيلدا امرأة مجنونة . اما نانسي ميلفورد ، فهي مع « رينغ لاردنر » الذي كان قد احبها كثيرا، وكتب لها هذه القصيدة :

من بين كل الفتيات اللواتي أحبهن
ويعلم الله آن كن عديدات
ليس منهن واحدة تساوي زيلدا سايير
التي هي الآن زوجة رصّاص ! (١) .
تاريخ جديد للفلسفة ...

في ميدان آخر ، هو الفلسفة ، تكثر احاديث المفكرين الفرنسيين عن طغيان وسائط الاتصال الجماهيري على الفكر الفلسفي المعاصر ، وابتذالها مفرداته باستخدامها في الحياة اليومية لترويج بضاعتها ، مفرغة اياها شيئا فشيئا من دلالاتها الاساسية .

ولكن هؤلاء يشعرون ـ بالمقابل ـ بالحاجة الـى ان تكون الفلسفة في متناول القطاعات العريضة من الجماهير دون ابتذال . وفي المكتبة الفلسفية الحديثة عدة كتب تتناول تاريخ الفلسفة يمكن اعتبارها مـن أفضل الكتب في هذا الميدان خاصة كتاب جانيه وسياي الذي نهـج طريقة في تاريخ الفلسفة تقوم على اساس متابعة تطور كل مشكلة مـن المشكلات الفلسفية الاساسية على حدة منذ فجر تاريخ الفلسفة حتى العصر الحديث . ويمكن اعتبار هذا التاريخ نموذجا لتاريخ الفلسفـة الذي يقوم على مصادرة مفادها تقدم المعرفة . وهناك أيضا كتاب اميل برهييه في تاريخ الفلسفة الذي يقع في تسعـة اجزاء يتضمـن تلخيصا وافيا للمذاهب الفلسفية عبر أصحابها والمنتمين اليها واحدا واحدا.

غير أن هذه الكتب تظل قاصرة على فئة من المثقفين او الطلبة ، فـي حين تظل الحاجة قائمة الى تاريخ للفلسفة يستطيع ان يخاطب الجماهير الواسعة . ومن هنا اهمية هذه المحاولة التي يقـوم بهـا «فرانسوا شاتليه» الان من خلال اشرافه على كتابة تاريخ جديد للفلسفة يتناول الافكار والمذاهب بطريقة مختلفة . لماذا هذه المحاولة ؟ وما هي هذه الطريقة ، وما هي مبرراتها ؟ . تلك أسئلة طرحها « روجيه رول دورا » من اللموند على فرانسوا شاتليه في مقابلة أجراهـا معـه ، وانقلها للقارىء فيما يلي :

ـ ماالذي يمكن ان يقدمه لنا اليوم تاريخ للفلسفة ؟ .

ـ ان ما هو مهم في الفلسفة الماضية ليس أن نعرف أنها كانت قائمة على أساس تقدم المعرفة ،وانما هي الاجابات الاصلية والتصورات التي اعطتها للمشكلات التي طرحتها الممارسات الاجتماعية والدينيـة والعلمية .هذه التصورات المكتشفة يمكنها أن تلعب اليوم دورها فـي العديد من المجالات وخاصة في مجال نقد مجتمعنا .

أن تعليم الفلسفة اليوم يقوم على أساس نقدي بشكل أساسي .

---

(١) PLOMBIER

وفي هذه الحالة فان تواريخ الفلسفة التي تهيىء تلاميذ الصفوف التكميلية وطلاب تواريخ دوغمائية . انها تعتمد على فكرة تقدم الفكر من افلاطون حتى جان بول سارتر أو ميشيل فوكو ، وهي طريقة نرفضها رفضا مطلقا .

ـ في كتابك بعض المفكرين الذين لايتوقع المرء وجودهم ،وآخرون غائبون . هل كان هذا الاختيار تعسفيا ؟ .

ـ في قسم منه . لان ذلك لايعني ان نعكس صيرورة الفكرة الفلسفية ـ وتواريخ الفلسفة التي نهجت أسلوبا مختلفا كليا نفس ذلك ـ وانما استشارة عاطفة الحب أو السخط . وسأكون مفتونا اذا حدث أن قارئا كان يقرأ الجزء الثالث من كتابي فقذف به جانبا وهو يقول لنفسه : « سأقرأ اسبينوزا ». ومما لاشك فيه أن من الممكن أن يبدو لامعقولا تخصيص « توما ماونتزر » بفصل كامل وعدم ذكر آية كلمة عن بليزباسكال أو على الاقل مجرد التلميح اليه . الا انه كان لي حظ الالتقاء بباحث جديد بالحديث ـ بطريقة رائعة ـ عن توماس ماونتزر . ثم ان باسكال لايحمل أدنى فكرة جديدة عن الفكرالتبريري المسيحي الذي تحدثت عنه الفلسفة الوسيطة مطولا .

ـ ماهي أبرز خطوط الجزء القادم ؟.

ـ انه يحمل اسم « الفلسفة والتاريخ » ١٧٨٠. ١٨٨٠ ، وسوف يحللاستجابة النظرية للواقع الجديد الذيفرضته صيرورة المجتمعات واشتراك الشعوب الفعلي في ميادين البحث . لقد عادت الفلسفة للعمل سواء من خلال تحضير النظم الكبرى ، اومن خلال الاحتجاج ضد هذه النظم نفسها كما هو الامر بالنسبة للفلاسفة (شترنر ـ كيركيغارد ـ باكونين) أو من خلال اعادة تحديد نظام النظرية(ماركس وانغلز).

ـ هل يمكن كتابة تاريخ لفلسفة القرن العشرين كما هو مخطط الجزءالثامن ؟.

ـ يمكن الحديث عنه .ففيه أيضا تبرز نواحي الاختلاف .يتضمن هذا الجزء بشكل خاص فصلا لجاك بوفريس عن فكرة مهملة في فرنسا هي « التجريبية المنطقية (راسل ـ كارناب ـ فتغنشتين) » وفصلا عن فرويد كتبه بيير كوفمان ، وسيتحدث جيل دولوز عن البنيوية .انه من الصعب انجاز كل شيء . ربما كنا ندخل في عصر نور جديد يسبق ثورة جديدة ، وربما كان العكس اذا أردنا التحدثكاللاهوتيين: أي بداية نهاية الزمن .

ـ هل يمكن اعتبار تاريخ الفلسفة هذا دليلا ؟.

ـ على كل حال انه ليس دليلا مفصلا ، وانما تسميته «جغرافية الفلسفة » .وفي الواقع فان مشروعه هو ممارسة المكتشفات الجوهرية عبر مؤسسة تؤلف ماضيه وقوته ذلك يعني لا أن نرى المشهد فقط ، وانما أن نتساءل كيف أصبح هذا المشهد على ماهو عليه الآن ، أعني هذا المشهد الذي نراه اليوم

ان تتكلم عن افلاطون مثلا ، هذا يعني ان تعمل في الجيولوجيا . بيد ان الجيولوجيا ترى في لون الاحجاروفي الاحراج ، وبملاحظتها يمكن ان تعود بها لمرحلة التشكل الذي جعلها على هذا الوضع وحدد بالتالي خصائصها . ذلك هو معنى مشروعنا :

ـ ثمة ضرورة تتحكم بكل كتاب وهي قابليته للقراءة . الى أي جمهور يتجه هذا الكتاب ؟.

ـ كان كانط قد تحدث عن ذلك في نهاية القرن الثامن عشر : على الفلسفة أن تكون شعبية ، أي أن تكون مقروءة . ان الابتذال يقوم على تسهيل المشكلات المطروحة لاعطاء اجابات سهلة .أما الفلسفة الشعبية فهيعلى العكس ،تحافظ علىصعوبة وتعقد الاسئلة والاجابات، ولكن بطريقة تجعل فيها هذه وتلك قابلة للفهم . وعلى الرغممن الهجوم الذي يشن عليها ، والسخرية التي تثار ضدها ، فقد تابعت الفلسفة ممارسة سحرها الكبير . ان مفكرين من أمثال ميشيل فوكو وجيل دولوز يستثيرون ظاهرة تتعلق بالموضة ، ولكني اعتقد ان هذه الموضة تترجم ظاهرة اكثر عمقا .

ان الناس يشعرون ان المفردات الفلسفية التي يستطيعون سماعها من الراديو أو من التلفزيون تستخدم بشكل رديء . انهم يريدون معرفتها بشكل اوضح ، أشد وضوحا من التفسير الذي يقدم لجمهور الجامعات . فالى هذه الضحايا التعيسة لوسائل الاتصال الجماهيري يتجه تاريخ الفلسفة هنا . انهم ضحايا لان وسائل الاتصال الجماهيري تستخدم هذه المفردات النبيلة لكي تحرر ما يمكن تسميته ببضاعتها .

ـ هل أنت راض عن تاريخ الفلسفة هذا ؟.

ـ نعم ، اذا قست المشروع بتحقيقه . ولكن مشروعا آخر اكثر اتساعا يمكن أن يتحقق يحتاج الى عشرات السنين ومئات الباحثين وهذا يعني تاريخا للفلسفة يكمله تاريخ عام للايديولوجيات . لابد اذن من بحث الفلسفة كما يبحث الانثولوجيون مجموعة من الاساطير لمعرفة أي قوام وأيه بنيه تملكها المقالات الفلسفية وما هي وظيفتها الايديولوجية ودلالتها السياسية . الا انه من اجل ذلك لا بد للانسانية من ان نقرر التفكير بماضيها بوصفه ماضيا .

* * *

أسبوع الثقافة العربية

على أن الحدث الثقافي العام قبل شهرين (١) لم يمر في باريس، وانما في مدينة ستراسبورغ ، وأعني به اسبوع الثقافة العربية الذي نظمه مكتب الجامعة العربية في باريس بالتعاون مع جمعية الصداقة العربية ـ الفرنسية وجامعة العلوم الانسانية في ستراسبورغ ، والسفارات العربية في باريس .

لاول مرة يقام مثل هذا الاسبوع الثقافي في فرنسا، وفي منطقة الالزاسبالذات حيث يكاديكون الوجود العربي فيها شبه معدوم في محاولة للتعريف بمظاهر الحضارة العربية المختلفة . وقد تضمن الاسبوع ثلاث محاضرات وأمسية موسيقية ومعرضا للفنون التشكيليه ومعرضا للكتاب العربي .

اشترك في القاء المحاضرات كل من علي مراد أستاذ العلوم الاسلامية في جامعة ليون ثالتى محاضرة عن الاسلام ، ونجم الدين بامات ـ وهو افغاني الاصل ـ مدير ادارة الثقافة في منظمةاليونسكو الذي تحدث عن آثار الحضارة العربية الاسلامية على العالم الغربي ، وبول بالتا الذي تحدث عن التنمية في البلاد العربية ومبادلاتها مع أوربا .

أما بالنسبة للموسيقى فقد أحيا عازف العود المعروف ماهر عقيلي امسية موسيقية استمرت ثلاث ساعات وذلك في مقر معهد الكونسرفاتوار بستراسبورغ .

وخلال ايام الاسبوع بين ٢٤-١- ١٩٧٣ و ١-٢-١٩٧٣اقيم معرضان: معرض الفن التشكيلي في قاعة برنانوس بجوار جامعة ستراسبرغ ، وقد تضمن عددا من اللوحات التي قدمها الفنانون العرب الذينيقيمون في باريس حاليا ـ وقد كان من قبيل الصدفة المحضة انعددا من أهم الفنانين التشكيليين العرب مقيمفي باريس حاليا ـ، ومعرض الكتاب، وقد ضم حوالي خمسمائة كتاب قدمتها مختلف السفارات العربية في باريس وتمثل أوجه النهضة في البلاد العربية وتاريخها وحضارتها .

لقد كان هذا الاسبوع ولاشك مبادرة جيدة قام بها مكتب الجامعة العربية في باريس بالتعاون مع جمعية الصداقة العربية ـ الفرنسية. وقد احتفلت به كافة الصحف الاقليمية التي تصدر في منطقة الالزاس وخصصت له اذاعة فرنسا ـ الثقافة FRANCE CULTURE برنامجا يوميا لمدةعشر دقائق تضمن أحاديث عن مختلف أوجه النشاط فيه وأجرت حوارا مع كل محاضر حول الموضوع الذي عالجه . وفي نهاية الاسبوع نظمت محطة فرنسا FRANCE - INTER مسائدة

---

(١) كنت وددت التحدث عن هذا الحدث في الرسالة التي كان يجب ان اكتبها للعدد الماضي من « الآداب » غير ان ظروفا طارئة حالت دون كتابتها .

مستديرة حول الاسبوع اشترك فيها كل من لوي تيرنوار رئيس جمعية التضامن العربية ـ الفرنسية ، وتوسيان بيترلان سكرتيرها العام والدكتور فهد مدير معهد الدراسات العربية بجامعة ستراسبورغ والمستشرق الفرنسي لوسيل الاستاذ بمعهد اللغات الشرقية بجامعة باريس ، ومدير مكتب الجامعة العربية بباريس .

ويمكن القول ان هذا الاسبوع قد حقق الاغراض المنشورة منه ـ نسبيا ولا شك ـ بالقياس الى الامكانيات المادية والتنظيمية التي خصصت له . ولكنه على كل حل كان محاولة اولى ـ ميزتها الاولى والاهم انها تقدم الوطن العربي كوحدة ثقافية لا كاجزاء ـ يشوبها ما يشوب المحاولات الاولى من اخطاء ويعتورها ما يعتور المحاولات الاولى دوما من نقص ومن الاهمية بمكان ان نسجل في هذا المجال الملاحظات التالية :

ـ ان اقامة اسبوع خاص بالثقافة العربية الكلاسيكية في اوجها تمثل جزءا من هذه الصورة . غير أن الاقتصار عليها ـ من خلال المحاضرات خاصة ـ يكاد ينفي الوجود الثقافي العربي المعاصر الذي يشكل ولاشك الجزء المتمم من الصورة . ومن الغريب الا تتطرق المحاضرات الى الثقافة العربية المعاصرة ، في حين يقدم معرض الفن التشكيلي اخر ما وصلت اليه مواهب الفنانين العرب في هذا الميدان . لقد كان من الممكن دعوة أساتذة آخرين ، سواء من فرنسا او من البلاد العربية للتحدث عن الادب العربي المعاصر ، عن الموسيقى العربية المعاصرة ، عن أوجه التطور والنمو الاقتصادي والاجتماعي في الوطن العربي خلال الحقبة الاخيرة .. ولكن المشرفين على تنظيم هذا الاسبوع لم يلتفتوا الى هذا الامر .. لأنه مغامرة في مس جوانب سياسية يريدون الابتعاد عنها بأي ثمن ؟. لكن ما دام الغرض من اقامة هذا الاسبوع هو التعريف بالثقافة العربية فلماذا نقدم الصورة ناقصة ؟.

كان من الممكن ان يتضمن الاسبوع ـ ما دام اسبوعا للثقافة العربية ـ نشاطات اخرى لا تقل اهمية في قدرتها على اعطاء صورة واضحة وعميقة عن هذه الثقافة . كان من الممكن ان يتضمن الاسبوع عروضا سينمائية لافلام عربية لا تقدم فكرة عن المستوى الذي حققه وطننا العربي في مجال فن وصناعة السينما فحسب، وانما تقدم صورة عن التطور الحضاري الراهن في الوطن العربي وتطرح في الوقت نفسه قضاياه الانسانية . ألم يكن من الممكن تحقيق نتائج ايجابية اخرى ضمن حصيلة النتائج الايجابية لو عرضت افلام مثل فيلم « المومياء » و « الفلاح الفصيح » لشادي عبدالسلام، و« المخدوعون » لتوفيق صالح ، و« بعيدا عن الوطن » و« شهادة الاطفال الفلسطينيين في زمن الحرب » لقيس الزبيدي و« نابالم » لنبيل المالح ؟. ألم يكن من الممكن تحقيق نتائج ايجابية اخرى لو نظم النشاط الخاص بالموسيقى العربية على اساس ان تقدم خلاله اعمال موسيقية لمؤلفين موسيقيين من امثال ابي بكر خيرت ، المؤلف الموسيقي العربي الذي فتح للموسيقى العربية افقا عالميا ما يزال تلامذته يتابعون طريقه من بعده ، بدلا من ان يقتصر النشاط الموسيقي على ثلاث ساعات من العزف المنفرد على العود ـ ولماذا العود وليس القانون وهو أكثر غنى مثلا ؟ ـ عزفا قد يطرب البعض ولكنه يدهش البعض الاخر ولا شك ؟.

ـ لم تكن التغطية الاعلامية التي سبقت اقامة الاسبوع او تخللته كافية . صحيح انها كانت جيدة على المستوى الاقليمي، اي على مستوى منطقة الالزاس ، ولكنها كانت معدومة في باريس . ففيما عدا الخبر الصغير الذي نشرته صحيفة « اللوموند » لم تشر اية صحيفة اخرى الى هذه التظاهرة الثقافية العربية الاولى من نوعها في فرنسا .

ـ على الرغم من الطابع الثقافي المحض لهذا الاسبوع ، وعلى الرغم من اقامته في مقاطعة الالزاس وليس في باريس مثلا ، فانه لم ينج من هجوم صهيوني . فقد نشرت صحيفة محلية تصدر في ستراسبورغ هي صحيفة « Tribune Juive » مقالا تحت عنوان « هل اصبحت جامعة ستراسبورغ صنيعة جمعية التضامن العربية ـ الفرنسية » تعرضت فيه لجمعية التضامن العربية ـ الفرنسية بقولها: ان هذه الجمعية، وهي ذات طابع سياسي تحاول تحت ستار الثقافة الحصول على نتائج سياسية . وقد هاجمت ايضا رئيس الجمعية السيد لوي تيرانوار ـ وهو وزير ديغولي سابق ـ بقولها :« انه الرجل الذي اتهم غولدا مائير بانها المسؤولة عن مذبحة ميونيخ ، وانه لا يكف عن مقارنة الصهيونية بالنازية ... » .

ان مثل هذا الهجوم الذي يتعرض له نشاط ثقافي محض لا بد ان يؤخذ بعين الاعتبار عند تنظيم اسبوع اخر . فلا شك ان تنظيم اسبوع يقدم صورة عن الثقافة العربية المعاصرة ووجوه النشاط الحضاري الراهنة في الوطن العربي لن يبقى بمعزل عن هجوم اشد واقسى ، وربما تعرض الى ضغوط صهيونية تحول دون اقامته. فقد تساءلت الجريدة المذكورة نفسها عن سبب عدم ممارسة مثل هذه الضغوط للحيلولة دون اقامة هذا الاسبوع ، هذا فضلا عن تعرض اصدقاء العرب من الفرنسيين الى حملات قذرة تمس كرامتهم وانسانيتهم . فما الذي بوسعنا ان نفعله لمواجهة مثل هذه الضغوط ولحماية هؤلاء الاصدقاء بل وللدفاع عنهم اذا لزم الامر ؟ . لا بد ان تكون الاجابة عن هذا السؤال في حسباننا عند البدء في تنظيم تظاهرة ثقافية اخرى تتلافى نواقص التجربة الاولى .

ان الملاحظات السابقة لا تحول على كل حال دون تقديرنا لهذه المحاولة التي كان يجب أن تحقق منذ زمن بعيد .

باريس — بدرالدين عرودكي

الاتحاد السوفياتي

رسالة من برهان الخطيب

ما الجديد في مسارح موسكو

وانت تمشي في شوارع موسكو : غوركي ، كالينين ، تشيخوف، وعشرات غيرها ، تلتقط عيناك يوميا اعلانات لا حصر لها تشير لك الى ما يعرض في مسارح المدينة ودورها الثقافيه الكثيرة ، التي هي بمثابة نواد اجتماعية عامة . ولا تكاد تقرأ نصف ما تصادفه من هذه الاعلانات ، حتى تجد في اليوم التالي أن كل شيء تغير ، وان مسرحيات جديدة تعرض وحفلات موسيقية مختلفة تقام ومحاضرات ادبية وعلمية اخرى تلقى . واكشاك بيع التذاكر لهذه الحفلات موزعة في كل مكان تقريبا ، ولكن اغلبها يعذر عند تقدمك لطلب بطاقة الى مسرح تكانكا (قبل حوالي العقد اخذ المخرج لوبيموف طلبته وزملاءه الى مبنى صغير في منطقه تكانكا طارقا دربا جديدا لم يكن المسرح السوفيتي يعرفه من قبل .. تمرد توبيموف وفرقته على التقاليد المسرحية التي دامت عقودا ، وطرح مفاهيم واشكالا جديدة جوبهت برفض قاطع ، وقبول شديد .. فهاملت مثلا نراه على المسرح بيده قيثارة ، يرتدي بلوزة سوداء رياضية وسروالا قصيرا (كاوبوي) ، يدمدم بكلمات نسمعها من « الشباب المتمرد » في الشوارع .. ومن هذه الصورة البسيطة يمكن الانطلاق في تكوين انطباع عن هذا المسرح الطليعي ـ الذي لا يقتصر تأثيره على المشاهدين الثلاثمائة الذين لا تسع قاعة المسرح غيرهم ، بل يتعداهم لينسحب على مسارح الشباب المعاصرة في شتى انحاء الاتحاد السوفيتي) مثلا أو مسرح سفريمنيك الجديد ، او مسرح فاختانكوف . فالحياة الثقافية هنا في فوران دائم والناس يجدون الوقت دائما لمتابعة كل ما يستجد عرضه هنا في العاصمة السوفيتية ، غير ان ليس كل المسارح تلقى مثل هذا الاهتمام من الجمهور ، فالمشاهد اليوم لا يتلقى كل ما يسمعه او يراه دون ابداء رأي ، فهو قد وصل الى درجة من المعرفة والثقة بالنفس بحيث يمكنه الوقوف امام عدسات التلفزيون في برامج حية للرد على أسئلة مذيعين لبقين دون ارتباك او اهتمام بالاضواء التي يسلطها عليه مسؤولو الانارة في هذه البرامج ، هذا هو اعتقاد الناقدة المسرحية المعروفة اينافيشنفسكايا الذي دفعها لاستحداث برنامج بالاتفاق مع احد المخرجين لاستقراء آراء المشاهدين حول انحياة المسرحية الناشطة اليوم ، فتأتي هذه الآراء تحمل نكهات خاصة ومضامين غير متوقعة في كثير من الاحيان ولكنها دائما تكون ذا فائدة للكتاب وللممثلين وللمخرجين على حد سواء . ولا يخلو الامر من طرافة في احيان اخرى، توجه الكاميرا الى جمهور المشاهدين اثناء خروجه بعد انتهاء العرض وتسأل مقدمة البرنامج احدى السيدات وهي تهبط السلم في طريقها

لارتداء معطفها :

ـ سيدتي العزيزة ، ما رأيك في المسرحية التي عرضت اليوم ؟

ولكن السيدة تواجه ابتسامة مقدمة البرنامج بتقطيبة وتجيبها :

ـ لم تعجبني !

وتتسع ابتسامة المقدمة في محاولة لتدارك الموقف امام جمهور مشاهدي التلفزيون ، وتتوجه بالسؤال الى رجل يحتفظ بسيماء الوقار :

ـ هلا قلت لي أيها الرفيق ما الذي جعلك تختار هذه المسرحية بالذات لمشاهدتها من بين عشرات المسرحيات الاخرى التي تعرض في العاصمة ؟

ولكن الرجل يواصل هبوط السلم قائلا :

ـ هذه هي المرة الاولى التي أدخل فيها المسرح بعد مرور ست سنوات ، وبعدها لن أدخله ثانية ابدا !

وتنتقل الكاميرا الى اكشاك بيع التذاكر لترصد حجم الاقبال على هذا المسرح او ذاك ، فترى الطلبات تتوافد على عروض مسرحي سفريمنيك وفاختانكوف بكثرة توحي كما لو ان القضية مقصودة او أن لا مسارح في موسكو غير هذين المسرحين ، ولذلك يتفق المخرج مع أحد العمال الفنيين لتمثيل دور في البرنامج بالاستفسار من بائعة التذاكر عن عروض مسرح آخر غير هذين المسرحين ، فيسأل العامل :

ـ هل من تذاكر لمسرح غوغول ؟

يتوقع أن يسمع رد « التذاكر نافدة » أسوة بالاجابة على الاستفسارات المتكررة حول مسرحي سفريمنيك وفاختانكوف . لكنه يفاجأ بوجه البائعة يطل عليه من فتحة الكشك متلهفا على بيع تذكرة :

ـ نعم . أتريد ؟

ولا يدري العامل بماذا يجيب وهو الذي لم يحسب حساب ذلك مع المخرج ، فيتمتم اخيرا :

ـ لا . كان مجرد سؤال !

وينقذ نفسه بالتطلع الى نشرة العروض المسرحية .

وهكذا تمضي الحياة المسرحية بدفق شديد على الرغم من تمسك بعض المسارح بتقاليدها القديمة ، بل ان « تاكانكا » يرفض قبول مسرحيات جديدة متشبثا بعروضه المعتادة ، مستثنيا استضافة هاملت وطرطوف على خشبته في هذا العام . كذلك فان « مخات » رفض بناية جديدة أعدت له ، لحرصه الشديد على تقاليده التي ارتبطت ـ كما ترى هيئة المسرح ـ ببناء المسرح القديم والتي يخافون موتها بانتقالهم الى هذه البناية الجديدة ، ولذلك يعمدون الآن الى استخدام حيلة مهذبة بمحاولة اقناع السلطات المختصة اهداء هذه البناية الى مسرح آخر او تحويلها الى متحف لتاريخ مسرح « مخات » نفسه .

لكن السؤال عما هو جديد في الحياة المسرحية للعاصمة السوفياتية يظل قائما .

فما هو الجديد فعلا ؟

يلاحظ النقاد ان التراجيديا تضمحل من يوم الى يوم في المسرح المعاصر ، وان كثيرا من الممثلين الذين أعتادوا على اداء أدوار يتخصصون بها يموتون الآن (ليس جسديا) وانما تاريخيا ـ فنيا ، لان ادوارهم بالذات اخذت تتلاشى من الحياة اليومية للمواطن السوفياتي ، مقابل هذا أخذت تنشأ مفاهيم وأساليب جديدة في التعبير الفني ، يقف في مقدمة اولئك الذين يطرحونها اليوم على خشبات المسارح الكاتب المسرحي المشهور فيكتور روزوف الذي يمسك النجاح بين يديه منذ زمن طويل دون أن يتركه يهرب منهما . كتب مسرحيات كثيرة جدا ، تعرض الآن في موسكو اثنان منها . وقد اعتاد الكاتب هذا على تقديم عمل واحد في كل عام . وحققت مسرحيته « في ساعة طيبة » نجاحا ممتازا بحيث ان احد النقاد كتب عنه قائلا : ما ولد عندنا ليس كاتبا مسرحيا جديدا بل مسرح جديد . وآخر ما قدمه روزوف مسرحية جديدة بعنوان « حالة » جرى عرضها في حفل خاص بعد ان تمت البروفات المتطلبة لذلك ، ولكنها لم تحظ الحد الآن بسماح هيئة الرقابة ، الذي يتوقع ان يتم بعد اجراء بعض التعديلات والحذوفات ، كما انها لم تطبع ايضا بعد في أي من المجلات المسرحية .

« حالة » هي من اكثر المسرحيات التي تثير النقاش هذا اليوم.

يحتفظ الكاتب روزوف بالتقاليد المسرحية القديمة فيها كما هي عادته دائما في باقي مسرحياته الاخرى . ولم يحدث ان كتب مسرحية واحدة خارج اطار « الواقعية » . ففي كل مسرحية من مسرحياته تجد عنده العقدة وتطور الحدث والحل والسياق الواضح ... الخ ، دون ان ينسى تثبيت بعض المسائل الاخلاقية ، منجزا كل هذا بفنية عالية، الا أن تبشيره ببعض المبادىء الخلقية يؤثر عليها بشكل سيىء، اذ يحرفها عن جادة الصدق النفسي لتكوين الشخصيات .

تتحدث المسرحية الجديدة عن العامل الشاب فيكتور الذي يشغله التفكير في تطوير الطريقة الانتاجية في معمله ، فينجح في ابتكار اختراع جديد يتقبله المعمل منه ويضعه موضع التنفيذ ، ويمنحه لقاء ذلك مبلغا كبيرا (٤٠٠٠ روبل) . وتفتتح المسرحية على مشهد العامل الشاب فيكتور يجالسه صديقه انطوان ويتحدث معه حول طريقة صرف هذا المبلغ غدة استلامه . ويروح الصديق وآخرون يتفكرون في امر هذا المال مقترحين توزيعه بين شراء راديو ترانزستور وشراء فداحة غازية واشياء كمالية اخرى غير هذه ، وتقترح احدى الداخلات ـ والشخصيات تدخل الى المسرح وتخرج بلا تبرير ودون خضوع لحبكة فنية ، فروزوف يقول أن دخولها يجب ان يكون كما في الحياة من غير افتعال لحظات تفتقد الى الصدق الموضوعي ـ تقترح هذه الفتاة اعطاء المدير ربع المبلغ أي الف روبل نظير تقديره لجهود الشاب المخترع ومنحه هذه المكافأة ، واعطاء ايفان ايفانوفتش (شخص غير معروف) الف روبل ايضا ، كذلك لها (للفتاة) الف روبل ، والالف الاخيرة يشتري بها هدايا . وهكذا تضيّع المبلغ على هذه الاشياء ، وحين يسأل العامل المخترع عن نصيبه في هذه المكافأة تجيبه الفتاة : لك اربعون روبلا ، ألا ترى ذلك مسجلا هنا في القائمة ؟! ويعطونه ورقة سجلوا فيها كل مقترحاتهم . وتدفعه الفتاة تمارا والام الى استلام المبلغ . فينهض من مكانه ويتحرك للذهاب ، لكنه لا يفعل شيئا غير أن يتناول قليلا من الماء ويشربه ، ثم يتوقف برهة ينظر نحو السماء ويرجع اليهم بين دهشتهم . وهكذا يتطور حدث المسرحية بهدوء وبلا افتعال ومن خلاله يحاول المؤلف افهامنا ان حرب الفرد مع الشر ومع النواقص الحياتية تحوله بشكل ما الى مخلوق شبيه بالخطايا التي يحاربها . انها فكرة عميقة هذه التي يعرضها لنا روزوف ، ولكنه لا يقولها بمعزل عن تأثير تولستوي عليه ، وهو يقول في المسرحية بكلمات غير مباشرة ان : اتركوا العباقرة في هدوء . فالرجال نوعان كما يقرر : العباقرة (نمط غاليلو) الذين ينبغي تركهم يفتتحون ما يريدون لانهم وان يحنوا رؤوسهم لحين فانهم يواصلون في نفس الدفة انجاز ما يريدون انجازه . والنوع الثاني نمط سبارتاكوس الذين يشقون طريقهم في الحياة وفي ايديهم السيوف والرماح . ويقترح الكاتب ايضا عدم الخلط بين اولئك وهؤلاء ولا داعي لزجهم في مجال واحد .

هناك اشخاص يعرفون الكاتب شخصيا يقولون عنه ان ابطال مسرحياته تحمل الكثير من صفات المؤلف وفلسفته . تراه في كثير من الاحيان يخرج صباحا الى محطات المترو والقطر يناقش الناس حول ماهية الخير مبشرا بينهم بآرائه ومفاهيمه حتى انه يعود الى بيته في المساء متعبا لا يقوى على الامساك بالقلم ومواصلة الكتابة . وقد أعلن في احدى المرات اثناء التقائه بطلبة معهد باومن العلمي ما يكرره غالبا في احاديثه الخاصة من ان الفقر والترفع عن الملاذ الدنيوية هو أحسن شيء في الحياة . وقد جوبه باعتراضات الطلبة وهتاف ضاحك يدعو ان اعطنا أولا لنعرف هذه الحقيقة .

وجهت الناقدة فيشنفسكايا بعض الملاحظات الى مسرحيته الاخيرة « حالة » وشخصت فيها انتقادها الى قليل من الفكاهة تحتاجه لاشاعة حيوية اكثر في جوها العام . ويعتقد ان المسرحية ستستكمل قريبا كل الشروط الفنية والادارية المطلوبة لعرضها خلال الاسابيع القليلة القادمة في العاصمة السوفياتية .

موسكو

برهان الخطيب